

نظرات أدبية حول تفسير الطبري

الدكتور جليل تجليل

جامعة طهران

إنّ تفسير الطبري بحر زاخر لعلوم حجة قد انطوت بين دَفَات هذا التفسير القيم وقد انتقى كتاب المقال أسساً بلاغية منه ليوقف القارئ على المواقف البلاغية الطريفة الموحية للغاية، التي أكّد عليها الإمام الطبري في كتابه، بحيث نرى فيه بديع معاني القرآن وطرائفه العذبة، والنقيّة والجزلة. وفي المقال يدور الحديث أيضاً عن الإشارات النحوية التي تكمن فيها بلاغة، وركّز عليها الطبري، وإنّ تبدو غير مألوفة استعمالاً آنذاك، والتلميح بأنّ الجهود المضنية التي بذلها الطبري في تفسيره لم تقتصر على ناحية واحدة من العلوم المتوفرة في عصره لفهم القرآن بصورة أفضل وأعمق وأتم.

«ونحن في شرح تأويله، وبيان ما فيه من معانيه، منشئون - إن شاء الله ذلك - كتاباً مستوعباً لكلّ ما بالناس إليه الحاجة من عمله جامعاً، ومن سائر الكتب في ذلك كافياً، ومخبرون في كلّ ذلك بما انتهى إلينا من اتفاق الحجة. فيما اتّفقت عليه الأمة، واختلافها فيما اختلفت فيه منه، ومبينو علل كلّ مذهب من مذاهبهم، وموضّحو الصحيح لدينا من ذلك بأوجز ما أمكن من الإيجاز في ذلك...»^(١).

ولهذا الإيجاز المشار علّق بعض العلماء حواشي وتعليقات كحاشية حسن بن محمّد القمي الذي أورد في تعليقه:

«... لما كان التفسير الكبير المنسوب إلى الامام الأفضّل والهمام الأمثل، الحبر النجير والبحر الغزير، الجامع بين المعقول والمنقول الفائز بالفروع والاصول، أفضل المتأخرين، فخر الملة والدين، محمّد بن عمر بن الحسين الخطيب الرازي،

إذا ألقينا نظرة إلى تفسير الإمام الكبير العلامة الشهير، تفسير الطبري الذي ألفه مقدّم المفسّرين أبو جعفر محمّد بن جرير الطبري وسبّاه جامع البيان عن تأويل آي القرآن، نجد بحراً زاخراً من النكات الأدبية والقيم البلاغية، ونلقى فيما يلي نظرة إلى بعض النواحي الأدبية باحثين هذا في بعض الملاحظات النحوية والأدبية والبلاغية والبديعية مشيرين إلى شواهد وحجج استفدناها من أوراق هذا التفسير الشريف بإيجاز ودون دعوى الاستقصاء والامام بكلّ ما جاء فيه من لطائف بلاغية ونكت أدبية.

الغرض الأعلى من هذا التفسير، شرح تأويل القرآن وبيان معانيه والاستيعاب لكلّ حاجات الناس إليه والايضاح في الاتفاق والاختلاف فيه وتبيين علل كلّ مذهب من مذاهب من تقدّم في هذا الباب، كما صرّح الطبري في مقدمة الكتاب:

نظرات أدبية حول تفسير الطبري

جميع من... والتلميح القرآني في «لو اجتمع جميع من... إلى الآية الكريمة: ﴿قُلْ لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾^(١).

أما من النواحي الأدبية الأخرى ونخص بها الظرائف اللغوية والنحوية فنشير إلى ما جاء في الآية الكريمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا...﴾^(٢):

أولاً: إنه أوضح وجه الاستحياء من الله سبحانه.

ثانياً: معنى «ما» موجودة في «ما بعوضة».

ثالثاً: وجه اعراب بعوضة.

وأورد نكات عديدة هامة كما يلي:

«... أما تأويل قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي﴾ فإن بعض المنسوين إلى المعرفة بلغة العرب كان يتأول معنى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي﴾ أن الله لا يخشى أن يضرب مثلاً، ويستشهد على ذلك من قوله، بقول الله تعالى: ﴿... وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ...﴾^(٣) ويزعم أن معنى ذلك: وتستحيي الناس والله أحق أن تستحيه، فيقول: الاستحياء بمعنى الخشية، والخشية بمعنى الاستحياء^(٤).

ثم استشهد بقوله: ﴿أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا﴾ وقال: إنه بمعنى أن يبين ويصف كما قال: جلّ ثناءه: ﴿ضَرْبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ بمعنى وصف لكم... كما قال كعب بن زهير:

كانت مواعيد عرقوب لها مثلاً
وما مواعيد عرقوب إلا الأباطيل

ثم انبرى يوضح معنى «ما» في الآية بقوله:

(أما «ما» التي مع مثل، فإنها بمعنى الذي، لأن معنى الكلام: إن الله لا يستحيي أن يضرب الذي هو بعوضة في الصغر والقلة فما فوقها مثلاً، فإن قال لنا قائل: فإن كان القول في ذلك كما قلت، فما وجه نصب البعوضة، وقد علمت أن تأويل الكلام على ما تأولت ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا﴾ الذي هو بعوضة، فالبعوضة على قولك في محل الرفع فأنى أتاهما النصب؟ قيل أتاهما النصب من وجهين:

أحدهما أن ما، لما كانت في محل النصب، بقوله ﴿يَضْرِبُ﴾

وكانت البعوضة، لها صلة اعربت بتعريبها، فألزمت إعرابها،

كما قال حسّان بن ثابت:

تغمده الله رضوانه وأسكنه بحبوبة جنانه، اسمه مطابق لمساها وفيه من اللطائف والبحوث ما لا يحصى ومن الزوائد والغثوث ما لا يخفى، فإنه قد بذل مجهوده وقتل موجوده على عسر كتبه على الطالبين وأعوز تحصيله على الراغبين... فأوردت حاصل كلامه وقرّبت مسالك أقدامه^(٥).

فها أنا أورد مجملًا من نثره البديع ويراعه الالامع من مقدّمته حيث حمد الله سبحانه بأسجاع وموازنات والتعابير المحلاة بالتسجيع والطباق وغيرها من لطائف بديعية:

«الحمد لله الذي حجب الأبواب بدائع حكمه وخصمت العقول لطائف حججه، وقطعت عذر الملحدّين عجائب صنعه، وهفت في أسباع العالمين ألسن أدلته، شاهدة أنه الله الذي لا اله الا هو، الذي لا عدل له معادل، ولا مثل له مماثل، ولا شريك له مظاهر، ولا ولد له ولا والد، ولم يكن له صاحبة، ولا كفواً أحد... فكل موجود إلى وحدانيته داع، وكل محسوس إلى ربوبيته هاد، بما وسمهم به من آثار الصنعة من نقص وزيادة وعجز وحاجة...»^(٦).

فإننا نلاحظ الاسجاع والموازنات بين «بدائع حكمه، ولطائف حججه»، وبين «لا عدل له معادل ولا مثل له مماثل» وهكذا التجنيس الموجود بين «العبارتين الاخرتين» ونرى التلميح بالآيات القرآنية كما نرى في عبارة: «لا ولد ولا والد» اشارة إلى «لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد»^(٧) هذا ونلاحظ صنعة الطباق بين «نقص وزيادة» ومراعاة النظير بين «عجز وحاجة»... ثم أخذ نيعت النبي الأكرم واليك بعض ما جاء به في مقدّمة الكتاب:

«فإن من جسيم ماخصّ الله به أمة نبينا محمّد (ص) من الفضيلة... حفظه ما حفظه، جلّ ذكره وتقدّمت أسبائه، عليهم من وحيه وتنزيله، الذي جعله على حقيقة نبوة نبيهم (ص)... أبانه به من كل كاذب ومفتر، وفصل بينهم وبين كل جاحد وملحد، وفرّق به بينهم وبين كل كافر ومشرّك، الذي لو اجتمع جميع من بين أقطارها، من جنّها وإنسها... على أن يأتوا بسورة من مثله، لم يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً»^(٨).

ففيه حفظ «مراعات النظير» و«العموم والخصوص» بين «جأحد وملحد» و«كافر ومشرّك» و«التجنيس» بين «لو اجتمع

أليم^(١٣):

«الأليم هو الموجه، ومعناه: ولهم عذاب مؤلم، فصُرِفَ مؤلم إلى أليم، كما يقال ضربٌ وجيع بمعنى موجه، ﴿والله بديع السموات والأرض﴾، بمعنى مبدع، كما حدّثني المثني، قال حدّثنا إسحاق، قال: حدّثنا عبد الله بن أبي جعفر، عن أبيه، عن الربيع، قال: الأليم الموجه»^(١٤).

وهنا نكتة بلاغية، لأبَد من ذكرها، وتلك أن تجوز المعاني من مبني للفاعل إلى مبني للمفعول من مقولة المجاز اللغوي كما في الآية و﴿عيشة راضية﴾ و﴿سيل مفعم﴾ فكلمتنا راضية ومفعم مجازان بمعنى مرضية ومفعم.

ورأيت استقصاء تاماً في وجه نصب غشاوة في الآية الكريمة: ﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة...﴾^(١٥) فإنّه جواب قول قائل يسأل ماوجه مخرج النصب فيها؟ فإنّه أوضح مجيباً له:

«إنّ تصبها باضار» «جعل» كأنه قال وجعل على أبصارهم غشاوة ثم أسقط «جعل» إذ كان في أول الكلام مايدل عليه، وقد يحتمل نصبها على إتباعها موضع السمع، إذ كان موضعه نصباً، وإن لم يكن حسناً إعادة العامل فيه على غشاوة، ولكن على إتباع الكلام بعضه بعضاً، كما قال تعالى ذكره: ﴿يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق﴾، ثم قال: ﴿وفاكهة مما يتخيرون، ولحم طير مما يشتهون، وحور عِين﴾ فخفف اللحم والحور على العطف به على الفاكهة إتباعاً لآخر الكلام أوله، ومعلوم أنّ اللحم لايطاف ولا بالحور، ولكن ذلك كما قال الشاعر يصف فرسه:

عَلَفْتُهَا تَبْنًا وَمَاءً بَارِدًا
حَتَّى شَتَّتْ هَبَالَةً عَيْنَاهَا

ومعلوم أنّ الماء يشرب ولا يُعلف به، لكنّه، نصب ذلك على ما وصفت قبل، وكما قال الآخر:

وَرَأَيْتُ زَوْجَكَ فِي السَّوْغَى مَتَقَلِّدًا سَيْفًا وَرِمْحًا
ثُمَّ أورد كلاماً آخر وقال: حدّثنا القاسم، قال: حدّثنا الحسين، قال: حدّثني الحجاج، قال: حدّثنا ابن جريح، قال: الختم على القلب والسمع والغشاوة على البصر، قال الله، تعالى ذكره: ﴿فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يُخْتَمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ وقال: ﴿وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة﴾ والغشاوة في كلام العرب الغطاء^(١٦).

وكفى بنا فضلاً على غيرنا
حبّ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ إِيَّانَا

فعرّبت «غير» باعراب «مَنْ»، فالعرب تفعل ذلك خاصة في مَنْ وما، تعرب صلاتها باعرابها، لأنّها يكونان معرفة أحياناً ونكرة أحياناً.

وهنا وجه آخر، يجب أن تكون بعوضة منصوبة بـ «يضرب» وأن تكون «ما» النافية التي في «فما فوقها» معطوفة على البعوضة، لا، على «ما»^(١٧).

ومن جملة ما اخترت من تفسير الطبري بيان جواز توحيد ما اضيف له صيغة افعال في الآية الكريمة: ﴿.. ولا تكونوا أول كافر به...﴾^(١٨) لأنه يمكن أن يقال:

«كيف قيل: ﴿ولا تكونوا أول كافر به﴾ والخطاب فيه للجمع وكافر واحد، وهل تجيز إن كان ذلك جائزاً أن يقول قائل: لا تكونوا أول رجل قام؟ قيل له: إنّما يجوز توحيد ما اضيف له أفعال وهو خبر للجمع إذا كان اسماً مشتقاً من فعل يفعل، لانه يؤدي عن المراد معه المحذوف من الكلام، وهو مَنْ، ويقوم مقامه في الأداء عن معنى ماكان يؤدي عنه مَنْ، من الجمع والتأنيث وهو في لفظ واحد، ألا ترى أنّك تقول: ولا تكونوا أول مَنْ يكفر به، فَمَنْ بمعنى جمع وهو غير متصرف تصرف الأسماء للتثنية والجمع والتأنيث، فإذا أقيم الاسم المشتق من فعل ويفعل مقامه، جرى وهو مَوْحَدٌ مجراه في الأداء عمّا كان يؤدي عنه من معنى الجمع والتأنيث، كقولك الجيش ينهزم، والجند يقبل، فتوحّد الفعل لتوحيد لفظ الجيش والجند، وغير جائز أن يقال: الجيش رجل، والجند غلام، حتى تقول الجند غلمان، والجيش رجال، لأنّ الواحد من عدد الأسماء التي هي غير مشتقة من فعل ويفعل، لا يؤدي عن الجماعة منهم ومن ذلك قول الشاعر:

وَإِذَا هُمُ طَعِمُوا فَأَلَامُ طَاعِمٍ
وَإِذَا هُمُ جَاعُوا فَشَرُّ جِياعٍ

فوحّد مرّة على ماوصفت من نية مَنْ، وإقامة الظاهر من الاسم الذي هو مشتق من فعل ويفعل مقامه، وجمع أخرى على الإخراج على عدد اسماء المخبر عنهم، ولو وحد حيث جمع أو جمع حيث وحد، كان صواباً جائزاً^(١٩).

وقال أبو جعفر في تأويل قوله جلّ ثناءه: ﴿ولهم عذاب

نظرات ادبية حول تفسير الطبري

- ٦ - سورة الإسراء (١٧)، الآية ٨٨.
- ٧ - سورة البقرة (٢)، الآية ٢٦.
- ٨ و ٩ - تفسير الطبري، ج ١، ص ١٧٩.
- ١٠ - نفس المصدر، ج ١، ص ١٧٩، ١٨٠.
- ١١ - سورة البقرة (٢)، الآية ٤١.
- ١٢ - تفسير الطبري، ج ١، ص ٢٥٢.
- ١٣ - سورة البقرة (٢)، الآية ١٠.
- ١٤ - تفسير الطبري، ج ١، ص ١٢٣.
- ١٥ - سورة البقرة (٢)، الآية ٧.
- ١٦ - تفسير الطبري، ج ١، ص ١١٤.
- ١٧ - سورة البقرة (٢)، الآية ٨٣.
- ١٨ - تفسير الطبري، ج ١، ص ٣٩١.

وأما اختلاف القراءات في كلمة الحسن في الآية: ﴿... وقولوا للناس حسناً...﴾^(١٧) مما جاء به الطبري في تفسيره ونورد ههنا بعض الآراء الواردة في ذلك الكتاب الممتع:

وأما الحسن فإن القراء اختلفت في قراءته، فقرأته عامة قراء الكوفة غير عاصم: ﴿وقولوا للناس حسناً﴾ بفتح الحاء والسين، قراءة عامة قراء المدينة ﴿حُسناً﴾ بضم الحاء وتسكين السين. وقد روي عن بعض القراء أنه كان يقرأ ﴿وقولوا للناس حُسنى﴾ على مثال فعلى، واختلف أهل العربية في فرق ما بين معنى قوله: حُسناً وحَسَناً. فقال بعض البصريين: هو على أحد وجهين: إما أن يكون يراد بالحسن الحسن. وكلاهما لغة، كما يقال: البخل، والبخل، وإما أن يكون جعل الحسن هو الحسن في التشبيه، وذلك أن الحسن مصدر، والحسن هو الشيء الحسن، ويكون ذلك حينئذ كقولك: إننا أنت أكل وشرب، وكما قال الشاعر:

وَحَيْلٌ قَدْ دَلَفْتُ لَهَا بِحَيْلٍ
تَحِيَّةٌ بَيْنَهُمْ ضَرْبٌ وَجِيعٌ

فجعل التحية ضرباً، وقال آخر بل الحسن هو الاسم العام الجامع جميع معاني الحسن، والحسن هو البعض من معاني الحسن، قال ولذلك قال، جلّ ثناءه، إذ أوصى بالوالدين: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حسناً﴾ يعني بذلك أنه وصاه فيهما بجميع معاني الحسن، وأمر في سائر الناس ببعض الذي أمره به في والديه...»^(١٨).

وختاماً نستطيع أن نلقي نظرة إلى الناحية الأدبية للامعة في تفسير الطبري المشتملة على بحوث لغوية ونقارنها بسائر الكتب الموجودة في هذا الفن إن شاء الله وإني تناولت هذا الموضوع في أوجز مما يمكن في هذا المقال كما يقال: ما لا يدرك كله لا يترك كله، والسلام عليكم والحمد لله رب العالمين.

المصادر والهوامش:

- ١ - تفسير الطبري، طبعة مصر، ١٣٧٣هـ، ج ١، ص ٥.
- ٢ - غرائب القرآن و رغائب الفرقان، حسن بن محمد القمي النيسابوري، ص ٥ - ٦.
- ٣ - تفسير الطبري، ج ١، ص ٣.
- ٤ - سورة الإخلاص (١١٢) الآية ٣، ٤.
- ٥ - تفسير الطبري، ج ١، ص ٤.